مجلة الهلال

أغسطس 1999

كمال الدين حسين، نموذج لجيل نادر

بقلم د. رءوف عباس

ما كادت مصر تودع عبد اللطيف البغدادى إلى مثواه الأخير حتى فوجئت برحيل كمال الدين حسين، رفيق نضاله وصديقه الحميم، ليلحقا معا بمن رحل من زملائهم صناع ثورة يوليو 1952 م. رجال كانوا رمزا لجيل لم يكن له إلا هم واحد يشغله ويوقف حياته كلها من اجله، هم تخليص مصر من الهيمنة الأجنبية وتحقيق الاستقلال الوطنى، والعمل على إيجاد سبيل لتحقيق العدالة الاجتماعية والنهوض بالبلاد. شغلهم الهم الوطنى وهم بعض فتية صغار وصاحبهم وهم فى شرخ الشباب، وتحددت علاقة كل منهم بالثورة التى شارك فى صنعها على ضوء رؤيته لما يظنه الطريق الأمثل لتحقيق الأهداف الوطنية، ناضلوا بشرف، وابتعدوا عن الأضواء بعزة نفس وكرامة ، فلم تسول لأى منهم نفسه الانقلاب على الثورة على نحو ما عرفته الدنيا من سلوك الضباط الذين يشاركون فى الانقلابات العسكرية فى أمريكا اللاتينية وا ٍفريقيا وآسيا، فأولئك يدبرون الانقلابات بليل لخدمة مصالح جهات معينة خارجية وداخلية أو بهدف الوصول إلى السلطة. أما "الضباط الأحرار" صناع ثورة يوليو فكان خروجهم لقلب نظام الحكم جهاداً فى سبيل الوطن، من اجل تحقيق غد أفضل لبلادهم، وليس من اجل تحقيق مغانم شخصية لأنفسهم، أو لقوى خارجية أو محلية.

انتمى كمال الدين حسين وزملاؤه من الضباط الأحرار إلى ذلك الجيل النادر الذى جاء إلى الدنيا "قبيل أو بعيد" ثورة 1919م وشنفت أذانه فى طفولته ما كان يسمعه من آبائه وأخوته الكبار ومعلميه من حوادث النضال الوطنى خلال تلك الثورة المجيدة، وردد أناشيدها وتغنى بالعبارات الوطنية المتأججة التى أثرت عن زعامتها، ولكن ما كاد يشب عن الطوق، وتتسع مداركه، ويتفتح وعيه، حتى صدمته الحقيقة المرة، إذ اكتشف أن كل ما قدمه الشعب المصر ى من تضحيات فى ثورة 1919م من اجل تحقيق الاستقلال الوطنى قد تبدد، فما حصلت عليه مصر من استقلال فى إطار تصريح 28 فبراير 1922م كان وهما وزيفا. أصبحت مصر مملكة دستورية، غير أن جيش الاحتلال ظل فى مواقعه، والمندوب السامى البريطانى ظل يلعب دور المحرك الحقيقى لكل ما يدور على مسرح السياسة المصرية، والاقتصاد المصرى ظل نهبا للأجانب، وبقيت الامتيازات الأجنبية على ما كانت عليه عقبة فى طريق التنمية الاقتصادية، وأداه جعلت من المصرى غريبا فى بلاده.

***

أدرك أبناء ذلك الجيل البون الشاسع بين ما بذل من مضحيات فى ثورة 1919م، ومصر التى تفتح عليها وعيهم فى أوائل الثلاثينيات، والتى كانت مرتعا للانجليز مغنما للأجانب، يزداد فيها الأغنياء ثراء، والفقراء فقرا، تجمعت مقاليد السلطة فى يد الانجليز والقصر وأصبح الحكم النيابى أكذوبة كبرى بعد العصف بدستور 1923، واستكانت النخبة السياسية الحاكمة إلى التفاوض مع المحتل الغاصب كسبيل لتحقيق الاستقلال فخرجت من كل جولة من جولات التفاوض صفر اليدين. وحين أبرمت معاهد 1936م التى وصفها النحاس باشا بمعاهدة "الشرف والاستقلال" كانت مكاسب بريطانيا فيها كبيرة، ولم تكسب مصر إلا إلغاء الامتيازات الأجنبية عام 1937م، ووجودا رمزيا فى السودان، وما لبثت الحرب العالمية الثانية أن كشفت حجم الغرم الذى تحملته مصر خدمة لمصالح (حليفتها) بريطانيا بسبب معاهدة "الشرف والاستقلال". فلا غرابة – إذا – أن يكفر ذلك الجيل بالنظام السياسى الذى أقامة تصريح 28 فبراير 1922م، ودشنه دستور 1923 م، وأن يبحث عن بدائل لأطروحة "الليبرالية " الزائفة التى ادعاها ذلك النظام. ومن ثم كان البحث عن بديل، إما بالسعى لتجربة أطروحات أيديولوجية برزت على الساحة الدولية بعد الحرب الأولى كالاشتراكية والفاشية، أو تبنى صيغة تراثية إسلامية لعل فى هذه أو تلك يكمن العلاج الناجع لمعاناة الوطن.

وهكذا اتجه فريق من أبناء ذلك الجيل إلى ارتياد مجال العمل الاشتراكى وكسب التيار الفاشى أرضية واسعة بين الشباب ممثلا فى حركة مصر الفتاة، وأخذت جماعة الإخوان المسلمين تجتذب أعدادا من الشباب، وعلى حين كانت جماهير الفلاحين والعمال والأعيان تناصر الوفد باعتباره القيادة الوطنية التقليدية منذ ثورة 1919م، اتجه شباب الطبقة الوسطى بمختلف شرائحها إلى الانخراط فى حركات الرفض الاجتماعى والسياسى الثلاث : الاشتراكية، والفاشية، الإخوانية.. .. ولم يكن جيل صناع ثورة يوليو استثناء، فمن يبحث فى جذور الانتماء السياسى والأيدلوجى للضباط الأحرار يجد من استقر منهم عند واحدة من تلك الحركات، ومن اختار واحدة منها بعد ما تجول بينهما جميعا ومن تقلب بين صفوفها جميعا، ولكنه لم ير فى أى منها الأمل الذى يسعى إليه لخلاص الوطن من معاناته السياسية والاجتماعية.

جيل يتطلع لوطنه

وكان كمال الدين حسين ممن اجتذبتهم حركة الإخوان المسلمين، وتأثروا بها، وكان تأثر عبد اللطيف البغدادى أكثر بمصر الفتاة، بينما تجول خالد محى الدين بين تلك الحركات واستقر على ضفاف الحركة الاشتراكية، على حين مر جمال عبد الناصر بها جميعا دون أن يجد فى أى منها ضالته المنشودة لتحقيق ما كان يتطلع إلى تحقيقه لوطنه. جيل عانى القلق النبيل من اجل أمته، فكان رافضا لأيدلوجية

النظام السياسى القائم، وصاغ لنفسه فكرا جاء مزيجا غريبا من أفكار حركات الرفض الاجتماعى والسياسى سالفة الذكر.

كان كمال الدين حسين واحدا من أبناء ذلك الجيل، ولد عام 1918 م. لأسرة ريفية متوسطة الحال، والتحق بالكلية الحربية ضمن الدفعة التى قبلت بعد إبرام معاهدة 1936 م، إذ أوصى الإنجليز بالتوسع فى قبول الطلاب بالكلية الحربية، تحسبا للدور الذى قد يوكل إلى الجيش المصرى لخدمة أهداف بريطانيا فى الحرب العالمية الثانية، واشتغل كمال الدين حسين بالعمل الوطنى بين صفوف الضباط الذين كونوا خلايا سرية ثورية خلال الحرب العالمية الثانية، وانتمى إلى الإخوان المسلمين فى مطلع الأربعينيات وشارك جمال عبد الناصر فى تدريب عناصر النظام الخاص (التنظيم السرى للإخوان) على استخدام السلاح وفنون القتال، وبادر بالتطوع فى كتائب القتال ضد الصهيونية فى فلسطين عام 1948 م تحت قيادة البطل احمد عبد العزيز، ونقل عنه قوله إن المعركة الحقيقية ميدانها مصر حيث بلغ الفساد السياسى ذروته، وشارك فى حرب فلسطين عام 1948م عندما دخلتها الجيوش العربية ومن بينها جيش مصر، حيث ابلى بلاء حسنا كضابط بسلاح المدفعية. وكان عضوا مؤسسا لتنظيم الضباط الأحرار بقيادة جمال عبد الناصر عام 1949م، وشارك فى الإعداد للثورة، وكان عضوا بارز فى مجلس قيادة الثورة.

ولاء لفكر الإخوان

وعلى النقيض من زملائه الضباط الأحرار الذين ارتبطوا بالإخوان المسلين مثل عبد المنعم عبد الرءوف وحسين حمودة، كان ولاء كمال الدين حسين لتنظيم الضباط الأحرار وحده منذ طلب عبد الناصر من زملائه قطع كل صلاتهم التنظيمية مع الحركات السياسية التى كان بعضهم ينتمى إليها، وان ظل كمال الدين حسين منتميا إلى فكر الإخوان المسلمين طوال حياته وكان خروجه من السلطة عام 1965م تعبيرا عن موقفه الرافض لما أسفرت عنه محاكمات الإخوان، و ما حاق بهم من معاملة لا إنسانية فى المعتقلات.

وخلال مشاركته فى السلطة على مدى 13 عاما، قضى منها ست سنوات وزيرا للتربية والتعليم، فوقع على عاتقه تنفيذ السياسة التعليمية للثورة التى وسعت من قاعدة التعليم الابتدائى والعام، وتم تطوير التعليم الجامعى على نحو أدى إلى إحكام قبضة الوزارة على الجامعات من خلال رئاسة الوزير للمجلس الأعلى للجامعات. كما أصبح كمال الدين حسين مسئولا عن التعليم فى الجمهورية العربية المتحدة خلال العامين الأولين للوحدة مع سوريا، وأصبح رئيسا للمجلس التنفيذى فى مصر (مجلس الوزراء) لفترة قصيرة (اقل من العام) انتهت بانفصال سوريا عن مصر، وانتهى به المطاف نائبا لرئيس الجمهور ية وعضوا بمجلس الرئاسة. ولعل المنصب الأخير رغم ضخامته النظرية كان من أسباب تبرم

كمال الدين حسين الذى أحس أن مشاركته فى صنع القرار أصبحت محدودة، كما لم يشعر بالارتياح لتبنى النظام للاشتراكية لتعارض ذلك مع اقتناعه الفكرى.

وقد تأثر كمال الدين حسين تأثرا شديدا عندما فرضت عليه الإقامة الجبرية لفترة قصيرة، واعتكف تماما، ولكن ذلك لم يمنعه من الخروج من العزلة وعرض خدماته على عبد الناصر عندما وقعت هزيمة يونيو 1967م، كما لم يمنعه أيضا من متابعة الأحداث والانضمام إلى بعض رفاقه من الضباط الأحرار لمطالبة الرئيس السادات عقب وفاة جمال عبد الناصر بإعادة تشكيل مجلس قيادة الثورة، وهو الطلب الذى قوبل بالرفض والاستنكار من جانب السادات... ولعل ذلك الرفض كان وراء إصرار كمال الدين حسين على ترشيح نفسه لعضوية مجلس الشعب ومعارضته الشديدة للسادات التى انتهت بطرده من المجلس وا إسقاط عضويته، فعاد إلى العزلة مرة أخرى حتى مات.

طهارة اليد

ولعل من ابرز ما يسجله التاريخ لكمال الدين حسين وأمثاله من الضباط الأحرار طهارة اليد، فرغم المناصب المهمة التى شغلها، لم يحقق لنفسه ولا لأهله مغانم مادية، وظل يعيش على معاشه الشهرى وحده، وهى سمة غالبة على رجال تلك الطليعة الثورية التى أفنت شبابها فى خدمة الوطن وطوت قلوبها على همومه، وان كانت هناك استثناءات محدودة لهذه القاعدة إلا أن السمة الغالبة على أولئك الرجال هى الإخلاص فى خدمة الوطن وليس السعى لتكوين الثروات.

مات كمال الدين حسين بعد ما شارك فى صياغة حقبة من أهم حقب تاريخ هذا الوطن. ولما كان أمينا لمجلس قيادة الثورة ومشاركا فى السلطة فى أهم سنوات ثورة يوليو، فلا شك أن لدية فيضا من الأوراق الخاصة التى تحكى تاريخ تلك الحقبة، كما أن لديه مضابط اجتماعات مجلس قيادة الثورة التى كان مكلفا بتسجيلها بنفسه، ولعل إنصاف هذا الرجل أمام التاريخ يبدأ بتجميع أوراقه الخاصة وا إيداعها دار الوثائق التاريخية القومية لتصبح فى متناول الباحثين فى تاريخ مصر المعاصر، وهذه فرصة لتوجيه نداء لورثته حتى لا يضيع تراث هذا الرجل الذى ساهم فى صناعة ثورة يوليو المجيدة.